

الفكر السياسى فى القرآن

محمد تقى الامينى

من المقرر أن القرآن هو الجامع للافول العامة والقواعد الكلية والخطوط الأساسية والتوجيهات التشريعية التى تبنى عليها الحياة الفردية والاجتماعية والتى تضع تصميما للدولة وترسمها وتقوم عليها ادارتها وترتب حقوق الجمهور وواجباتها بين الفطرة المضمرة والشخصية المتوجة وبين الأسس الثابتة والفروع الخارجة .

والأحكام الجزئية وان كانت قليلة فى القرآن ولكنها ممتزجة بالحكمة التى ترشد الى حقائق الأحكام وطرقها العالية وتفتح باب الاجتهاد والاستخراج والاستنباط فيصلر حافلا لما يتفرع ويتنوع من صور الأحكام الجزئية والفروع المواجهة يوما فيوما حسب ظروف الناس وأحوالهم وبيئاتهم والحق أن القرآن هو كتاب حكيم لا كتاب أحكام :

ومنهج القرآن ليس على الطراز الكتابى مبوبا ذا فصول وتفصيلات بل هو مملوء باللطائف النفسية والحقائق الأخلاقية والأمجاد التاريخية والحوائج الجذرية فى الحياة الانسانية ومرتبطة بالرابطة الحيوية الروحية التى تربط بين كل ألوان النشاط البشرى والتطور الثقافى والتغيير الاجتماعى والسياسى .

ذلك الطراز الخاص منح الفكر السياسى تصورا جديدا ووجه له وجهها سليما وهو أنه ليس منفردا منطبقا على الحياة الخارجية فقط بل

انه جزء من النظم الفكرى والخلقى والتشريعى . ونجاحه وتأمين
المصالح به موقوف على الرابطة بين جميع اجزائها وبالأخص على
الصلة الوثيقة بينه وبين الضمير الأخلاقى الذى يضرب على الوتر
الحساس ويراقب كلا من جميع أعمال الانسان .
ها نحن نذكر فيما يلى ينابيع الفكر السياسى فى القرآن وهى -

(١) السلطة

(٢) الغاية الأسمى

(٣) الأهداف السامية .

أما السلطة العليا والسيادة الكاملة
والحاكمية المطلقة فكل هذه لله تعالى لا للشعب
والجمهور الذين هم قليلو البضاعة فى الأصل وهم مشبعون بالرغبات
والعواطف الرديئة ولا يمكن لهم أن يكونوا منزهين عن الخطأ والضلال
والسهو والنسيان التى هى من لوازم البشرية . والله هو المهيمن
المحيط القادر على منع الانسان من كل ظلم وانحراف ولو فى الخلوة
وهو الموصوف بجميع صفات الكمال والمنزه عن السهو والنسيان
والخطأ والضلال كما فى القرآن الحكيم « وهو الذى فى السماء اله
وفى الأرض اله وهو الحكيم العليم » (١) «الآ له الخلق والأمر» (٢) وقد
نفى النبى يوسف عليه السلام كل أنواع السلطة وهو فى السجن ودعا
السجناء للخضوع بسلطة الله الواحد القهار (٣) . هذا ويجب أن نلاحظ
النتائج التالية فى جميع نواحي الحياة على مستوى الحكومة وغيرها مثلا :
أ) ان الانسان يملك الحكم كنائب وأمين والحكم الحقيقى لله
تعالى كما فى القرآن الحكيم: « ان الحكم الا لله » (٤) «يادأود إنا جعلناك
خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس ولا تتبّع الهوى فيضلك عن سبيل

الله" (٥) "وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه" (٦) "إن الله يأمركم أن تودوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل" (٧) وقال زيد بن أسلم في هذه الآية " ان هذا الخطاب لولاية الأمر أن يقوموا برعاية الرعية وحملهم على موجب الدين والشريعة وعدوا من ذلك تولية المناصب مستحقيها" (٨) .

ب) ان الحكمة الالهية تتجلى فى كل قانون وتخطيط للحكومة حيث أنها تحتوى على قوانين التوزيع العادلة وأساليب التنظيم ووسائلهما عامة شاملة مثل غيث الرحمة بلا تخصيص ولا ترجيح وفى القرآن "ان الله يأمر بالعدل والاحسان" (٩) ان هذه الآية أجمع آية للحث على المصالح كلها والزجر عن المفساد بأسرها ,, وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" (١٠) ويدخل فى الرحمة العامة التنظيم الأنفع حسب مراعاة الأحوال و الأزمنة فانه لو اكتفى بطريقة واحدة لوقع الناس فى العسر وهذا يناهى الرحمة المذكورة فى الآية :

ج) الحكومة يجب أن تخرج من النطاق الضيق للقومية والوطنية و أن تدخل فى النطاق الأوسع للانسانية والعالمية فيظهر أثر العالمية فى كل شئى كما نرى فى صفات الله تعالى .

د) ان الاحساس بالمسئولية ومراقبة الله سوف تبرز ان فى كل عمل من اعمال الحكومة ويمكن بهذه الرقابة الذاتية اجتناب كثير من السيآت ، فقد جاء فى القرآن الحكيم ,, إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً" (١١) .
أما الغاية الاسمى فهى العبودية لله تعالى ونشر الفضائل والقضاء على السيآت وليست هى النفعية و الانتهازية والانانية البغضية ، قال الله تعالى ,, وما خلقت الجن و الانس إلا ليعبدون" (١٢) "ولقد

بعثنا فى كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت" (١٣) . العادة
هى غاية خلق الانسان ولذلك كل رسول دعا قومه الى هذه وهى
اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الاقوال والاعمال
الباطنة والظاهرة (١٤) وقال الله تعالى " الذين إن مكناهم فى
لأرض اقاموا الصلوة و آتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر
ولله عاقبة الأمور" (١٥) "يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل
لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال
التي كانت عليهم" (١٦) .

وبدون شك إن أمر الفضائل والرذائل دقيق جدا ولوترك
مقياسهما للانسان لاتسع المجال للهوى وانقلب الخير شرا
والشر خيرا كما فى الحضارة الغربية فانها جعلت مناسبات
الخير والشر مبنيا على الاختيار الفردى أو الاجتماعى وهو
مقياس يتغير دائما ولذلك الخير فى الصبح يتحول الى الشر مساء
ويتحول الشر فى المساء الى الخير صباحا وفى الفكر السياسى
مقياسهما امر الله تعالى وامره نهائى لا مجال فيه للتغيير فى اى
حضارة ، قال الله تعالى " وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل
لكلمته وهو السميع العليم وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن
سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون" (١٧) وقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم (وهو افضل انسان و اعلى رجل فى
التاريخ البشرى كله واعظم موثر على الاطلاق فى المستوى
الدينى والدنيوى وفى السياسة الناجحة كما قال مائكل هارث فى
كتابه " المائة ") " وهو الفضل ليس بالهزل وهو الذى لا تزيف به
الاهواء" (١٨) .

أما الأهداف السامية فهي المحافظة على قيم الحياة وحقوقها .
 إن المحافظة على قيم الحياة لا تقع مسئوليتها على الوعظ و الارشاد
 فقط بل هي من مسئوليات الحكومة والقانون أيضا، ولها حقيقة
 موضوعية وقيمة ذاتية على المستوى الروحي وليست هي تابعة
 للنتائج و الأرباح على المستوى الميكانيكي فاذا تغيرت هذه
 المنافع تغيرت القيم والفضائل أيضا .

والأصل أن منبع قيم الحياة هو صفات الله عزوجل ، قال الله
 تعالى ,, والله الأسماء الحسنى فادعوه بها (١٩) والجدير بالذكر ان
 لصفات الله فى مجموعها مجالين :

(١) مجال التعرف على الله و

(٢) مجال قياس السيرة الانسانية .

فالنسبة للناحية الاولى تنقسم الصفات الى ثلاثة اقسام :

(أ) الجمالية

(ب) الجلالية

(ج) الكمالية

وبالنسبة للناحية الثانية يمكن تقسيم هذه الاوصاف الى

الاقسام الآتية وهى مناط بحثنا :

(أ) الامتيازية

(ب) التعميرية

(ج) التكميلية

اما الامتيازية فهى مقياس للقيم الاخلاقية والفضائل الانسانية
 التى تفرق بها بين الانسان والحيوان وتسم الانسان بحسن
 السيرة وبالعظمة شخصا واجتماعيا وهذه الأوصاف هى : العلم

والحكمة والصدق والاخلاص والسخاء والعفة والحياء والأمانة والعدالة الشخصية والاجتماعية والرحمة والاحسان والعفو والايثار والتضحية وما الى ذلك . وهذه الميزات هي التي تهدي الى معرفة الانسان للحقيقته كما تصلح ألا اخلاقه فى الجوانب الاجتماعية والسياسية .

وأما التعميرية فهى مقياس للقيم الاخلاقية والفضائل الانسانية التى يتفوق الانسان بها على طاقات الكون ويستولى بها على خزائن الارض وأسرارها ويتمتع بحسن التنسيق والترتيب والقدر والرقى وهذه الاوصاف هى : العزة والقوة والهيبة وشدة البطش وقوة الاعتصام وقوة اتخاذ الاجراءات الشديدة وقوة تسخير الآفاق والاستعداد لتسخير الاشياء النافعة والضارة وما يندرج تحتها .

وهذه الميزات هى التى تساعد على معرفة الانسان كما انها تصلح مقياسا لآخلاقه فى الجانب الكونى . وأما الصفات التكميلية فهى مقياس للقيم الاخلاقية والفضائل الانسانية التى تقود إلى معرفة الله وإلى معرفة النفس البشرية ويتمتع الانسان من خلالها بالعبودية الحققة لله تعالى وقوة الشكيمة والغيرة لنفسه وهذه الاوصاف هى : الاحتياج الى الله وحده والعبودية له والرجاء والخوف والخشوع لله تعالى وسعة الصدر وطمانينة القلب والعين والتجلد والقناعة والاستغناء والتوكل والشجاعة والفتوة والمعرفة بحقائق الاشياء والقدرة على الاختراع والصناعة والمهارة والدقة فيهما والتدبير فى خصائص الاشياء ونعوتها وما يشبهها . وهذه الاوصاف تساعد على تعميق معرفة الانسان تصلح مقياسا لآخلاقه فى الجانب الذاتى والنفسى . ولعله من البديهي ان يكون تأثير الصفات من حيث المجموع مقياسا

للقيم الاخلاقية لا ان تنعكس كل صفة بكمال هيئتها وكيفيةها وكذلك لا يلزم من قبول هذا التأثير الشرك في ذات الله ولا ينشأ سوال حول فناء الانسان فيها مما يقول به الصوفية وغيرهم .

إن موضوع تحديد الحقوق موضوع بالغ الأهمية وبما أن القيم عند الحضارة الغربية بالاضافة إلى أن منبعها وكذا معيار الحسن والقبح فيها يرجعان إلى المجتمع لم تتحقق عندها الأسس الثابتة المستقلة لتحديد مجال الحقوق ولكن أساس الحقوق في القرآن هو قيم الحياة وهي قيم خالدة مستقلة فلذلك تتحقق بها الحقوق التالية مثلا :

- (١) الكرامة . فهي حق البشر كلهم من غير تمييز بين الاحمر و الاسود والكافر والمسلم ومن غير نظر إلى حسب أو جاه أو مال أو قوة أو مهنة أو طبقة وعلى الحكومة أن تقضى على نظرية التفرقة على أساس الامور المذكورة ، قال الله تعالى « ولقد كرمنا بنى آدم » (٢٠) «لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم» (٢١)
- (٢) الحماية . ولكل واحد الحق فى أن تحفظ نفسه ويصان ماله وعرضه وشرفه قال الله تعالى « من قتل نفسا بغير نفس او فساد فى الارض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحيهاها فكأنما أحيها الناس جميعا » (٢٢) وقال عليه السلام « فان دمائكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا » (٢٣) .
- (٣) المودة وهي الرابطة التى تربط بين بنى الانسان على المودة والحب والعطف والرحمة كما بين اعضاء الاسرة مع الاخلاص الكامل وابتغاء وجه الله فى ذلك كما قال الله تعالى « ورحمتى وسعت كل شى (٢٤) «وما ارسلنك إلا رحمة للعالمين» (٢٥) وقال عليه السلام « لا تنزع

الرحمة الا من شقى" (٢٦) وقال "ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء" (٢٧) وقال "من لا يرحم لا يرحم" (٢٨) وقال "الخلق عيال الله وأحب الخلق الى الله من أحسن إلى عياله " والمودة واجبة للمخالفين فى الدين أيضا ماداموا لم يعتدوا على المسلمين وغيرها ولم يعادوهم كما قال الله تعالى " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون" (٢٩)

(٤) العدالة المطلقة التى لا يخل بميزانها القرب أو البعد ولا الحب أو البغض ولكل واحد أن يتمتع بقوانين العدل فقد أمر الله تعالى بالعدل حتى مع العدو كما فى القرآن " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين" (٣٠) ولا يجر منكم شأن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى (٣١) .

(٥) الانتفاع العام . ولكل واحد أن ينتفع بما فى الكون على قدم المساواة مع غيره قال الله تعالى " هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا" (٣٢) وفى موضع آخر " وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين" (٣٣) .

(٦) المشاركة فى الحكومة . ولكل واحد حق المشاركة فى الحكم بشرط أن يكون أهلا لذلك وفى الحكومة الشورية روعى هذا أيضا مع مراعاة الأمور الاخرى وتغيير صورتها حسب الاحوال ومستوى الشعور وقد أمر الله النبى صلى الله عليه وسلم " وشاورهم فى الأمر" (٣٤) وفى

موضع آخر .. وأمرهم شورى بينهم“ (٣٥) وقد كتب عمر رضى الله عنه إلى اهل الكوفة .. يبعثون اليه رجلا من أخيرهم وأصلحهم وإلى أهل البصرة كذلك وإلى أهل الشام كذلك“ (٣٦) وهكذا اقر الخلفاء كثيرا من العمال غير المسلمين على مناصبهم بعد الفتوح (٣٧) .

٧) حرية الديانة . ولكل واحد الحرية فى الدين والعقيدة والمذهب وقد ورد فى القرآن .. لا اكراه فى الدين“ (٣٨) ولذلك جعل رسول الله صلى الله وسلم اتباع جميع المذاهب إخوة وقال .. ان العباد كلهم اخوة“ (٣٩) “وأنهم امة واحدة“ (٤٠) وللكل ضمان فى الاحوال الشخصية والثقافية كما فى البلاد المفتوحة .. أقر أهلها فيها على مللهم وشرائعهم (٤١) .. فهم أحرار فى شهاداتهم ومناكحاتهم وموارثتهم وجميع أحكامهم (٤٢) ولهم حرية فى التوجيه الدينى أيضا كما يظهر من هذا الحكم .. ولا يحال بينهم وبين شرائعهم“ (٤٣) .

٨) السلام والوفاء بالعهود بين الشعوب والحكومات أصل من أصول الفكر السياسى وحق من حقوق الناس وليس الأصل الخصومة والعدوان كما مرت الآيات قبل ذلك (٤٤) وفى موضع آخر .. وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم“ (٤٥) وقال عليه السلام .. أأمن ظلم معاهدا او انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منا شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة“ (٤٦) .

ولا يخفى على الأذكياء النابهين والعلماء المبتكرين أن للدولة سلطات واسعة فى القوانين الموضوعة لرعاية الآداب ومصالح الناس وانتظام الاحوال والاشخاص فلو تقيد الناس بالفروع المنصوصة عليها فقط ولم يجتهد اولو الامر والعلماء فى غيرها لوقع الناس فى الحرج وضاع حقوق الناس . والسلام على من اتبع الهدى .

المراجع

- (١) الزخرف : ٨٤
- (٢) الاعراف : ٦٤
- (٣) يوسف : ٢٩
- (٤) يوسف : ٦٧
- (٥) ص : ٢٦
- (٦) الحديد : ٧
- (٧) النساء : ٥٨
- (٨) الجوامع فى السياسة الالهية لابن تيمية ص ٣
- (٩) النحل : ٩٠
- (١٠) الانبياء : ٢١
- (١١) الاسراء : ٣٦
- (١٢) الذاريات : ٥٦
- (١٣) النحل : ٣٦
- (١٤) مجموعة المقال لابن تيمية ص ٦
- (١٥) الحج : ٤١
- (١٦) الاعراف : ١٣١
- (١٧) الانعام : ٨٧
- (١٨) المشكوة كتاب فضائل القرآن
- (١٩) بنى اسرائيل : ٧٠
- (٢٠) التين : ٥
- (٢١) المائدة : ٣٢
- (٢٢) المشكاة باب حجة الوداع

- (٢٣) الاعراف : ١٥٦
- (٢٤) الانبياء : ١٠٧
- (٢٥) المشكاة باب الرحمة والشفقة
- (٢٦) ايضا باب البر والصلة
- (٢٧) ايضا باب رحمة الناس والبهائم
- (٢٨) المشكاة باب فى الشفقة على الخلق
- (٢٩) الممتحنة : ٨ - ٩
- (٣٠) النساء : ٣٥
- (٣١) المائدة : ٨
- (٣٢) البقرة : ٢٩
- (٣٣) الحجر : ٢٠
- (٣٤) آل عمران : ١٥٩
- (٣٥) الشورى : ٢٨
- (٣٦) كتاب الاموال لابي عبيد ص ٦٤
- (٣٧) كتاب الخطط للمقرئى ج ٢ ص ١٢٠
- (٣٨) البقرة : ٢٥٦
- (٣٩) مسند احمد ج ١ ص ٣٦٩
- (٤٠) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ و الاموال لابي عبيد ص ٢٠٤ - ٢٠٥
- (٤١) كتاب الاموال ص ١٠١
- (٤٢) الاموال ص ١٤٥ ، ٤٣
- (٤٣) الطبرى لابن جرير ج ٤ ذكر الخير عن وقعة المسلمين والفريسي بنهاوند
- (٤٤) الممتحنة : ٨ - ٩
- (٤٥) الانفال : ٦١
- (٤٦) كتاب الخراج لابي يوسف ص ١٥٥